الدرس (05): ترجمة مصطلحات المنهج النفساني

تمهيد:

يعد المنهج النفسي من المناهج السياقية التي تتعامل مع النص الأدبي من الخارج؛ أي من منظور مجموع الملابسات المحيطة به، المتصلة أساسا بنفسية المبدع التي تتدخل بقوة في إنتاجه؛ أي هناك صلة وثيقة بين الأدب والنفس؛ ذلك أن الأدب يملك من الطاقات ما من شأنه صناعة النفس المنتجة والمتلقية على حد سواء، فضلا عن أن هذه النفس بدورها تتحكم بشكل كبير في التوجيه الأدبي، هذا ما دفع بالنقاد إلى الخوض في مغامرة الكشف عن كل ما يتعلق بهذه الصلة من شروط، وقوانين، ومصطلحات.

النقد النفساني للأدب:

شهد المنهج النفسي العديد من الجهود التي ساهمت بشكل أو بآخر في رسم معالم هذا النمط من المقاربة النقدية التي ذاع صيتها في مدونة النقد الأدبي الحديث، غير أن المرجع الغربي قد نال حصة الأسد في ذلك؛ مع «أن هذا المنهج النقدي الغربي – شأن غيره من المناهج الغربية – ينطلق من حضارة مختلفة في التصورات الفكرية عن حضارتنا، وهو لذلك حافل بكثير من القيم الهجينة التي لا تقرها عقيدتنا ولا ذوقنا»[1].

ولا شك في تدخل علم النفس في حقل الدراسات النقدية الأدبية؛ حيث أفاد الدرس النقدي الحديث من مختلف المقولات، والمفاهيم التي توصل إليها علم النفس في تحليله للنفس البشرية وما يصدر عنها من سلوك انفعالي إبداعي؛ أما عن مجالات البحث في النقد النفسي للأدب فتتمثل في[2]:

1. الكشف عن عملية الخلق والإبداع في الأدب والفن، وما يصحب ذلك من محاولات تفسيرية تعتمد أساسا على العوامل الشعورية واللاشعورية المتدخلة في تشكيلها؛ ذلك أن البعد النفسي عنصر أصيل في الإبداع الأدبي الذي يُنظر إليه على أنه استجابة لمؤثرات نفسية معينة.

2. الدراسة النفسية للأدباء، ومحاولة الكشف عن العلاقة القائمة بين مواقفهم الأدبية وظروفهم النفسية هذا من جهة والخصائص المميزة في نتاجاتهم الأدبية من جهة أخرى؛ أي أن عملية فهم الإبداع الأدبي مرهونة بمدى معرفة السير النفسية لأصحابه، وتفسير النص الأدبي لا يكون إلا بواسطة مكاشفة الحياة الشخصية لمؤلفه

[1]– وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث – رؤية إسلامية، دار الفكر آفاق معرفة متجددة، دمشق، سورية، ط2، 2009، ص67.

[2]– ينظر: نفسه، ص53-54.

بمختلف محطاتها (الطفولة، النشأة، مواقف، أحداث، مذكرات، اعترافات)، كما أن الكتابة تعد وسيطا جيد للكشف عن مكبوتات الكاتب التي تتسرب منه في شكل وقائع كتابية مهما حاول الكناية عنها.

3. دراسة العلاقات القائمة بين الإبداع الأدبي ومتلقيه، وما يمكن أن يترتب عن ذلك من أبعاد نفسية تأخذ شكل تأثيرات انفعالية لدى الملتقي لحظة استقباله للنص الأدبي، وفي هذه الحالة يجتهد الناقد النفسي في التركيز على ما يقدمه النص الأدبي للقارئ من إمتاع وإشباع انفعالي لرغبة ما ذات وجود سابق لديه، فضلا عن أن القارئ يعيد بناء التجربة الأدبية للنص المقروء بعد أن عاش تفاصيله، حينئذ تستمد القراءة دلالاتها النفسية من استدعاء النص تجربة نفسية لدى القارئ.

التحليل النفسي للأدب:

إذا كانت العديد من التصورات المنهجية في النقد قد خرجت من رحم الفلسفات الأجنبية المختلفة فإن التحليل النفسي للأدب قد خرج من عيادات الطب النفسي، بحجة أن الطبيب النفسي النمساوي سيجموند فرويد (1856 – 1939) رائد هذا المجال من البحث؛ حيث راح يستعين بالأدب في دراساته للنفس البشرية.

وقد برز التحليل النفسي للأدب بشكل فعلي في ضوء الدراسات والأبحاث التي قدّمها هذا الطبيب الباحث؛ الذي «يرى أن العمل الأدبي موقع أثري له طبقات متراكمة من الدلالة ولابد بالتالي من كشف غوامضه وأسراره»[1].

إن التحليل النفسي يدرس الظاهرة الإبداعية أدبا وفنا بوصفها انعكاسا لظاهرة نفسية معينة تمارس أثرها على الكفاية الفنية للمبدع، وهو يقوم على مجموعة من القضايا والفرضيات التقليدية المعقدة التي ما تزال قائمة في الدرس النقدي النفسي المعاصر؛ متمثلة في[2]:

1- هناك دائما تفاعل نفسي بين المؤلف أو القارئ أو المحلل النفسي والحياة النفسية بكل ما تحمله من رغبات وأحلام وتخيلات واقعية وغير واقعية.

[1]- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، المغرب / لبنان، ط3، ص333.

[2]- ينظر: نفسه، ص336.

2- يهدف التحليل النفسي للكشف عن الأسباب والدوافع الخفية، والمكبوتات الكامنة للمؤلف أو القارئ أو المحلل.

3- التعامل مع شخصيات العمل الفني على أنهم شخصيات حقيقية لها دوافع خفية ترجع إلى مرحلة الطفولة، كما أن لهم عقول تصدر عنها تصرفات واعية وغير واعية.

ترجمة المصطلح في المنهج النفسي:

تجمع البحوث والدراسات على أن الناقد الفرنسي "شارل مورون" (1899-1966) أول من استخدم مصطلح "النقد النفساني" (psycho-critique)، في محاولة منه للفصل بين النقد الأدبي وعلم النفس، وقد نجح في تحقيق ذلك؛ حيث جعل من التحليل النفسي وسيلة منهجية مساعدة في قراءة المنجزات الأدبية، بعد أن كان يمثل غاية في حد ذاته، وكان النقد الأدبي تابعا له شرحا وتوضيحا[1].

وقد اجتهد "شارل مورون" في تحديد مجال البحث والدراسة في حقل التحليل النفسي للمنجزات الإنسانية الإبداعية، في محاولة منه لضبط منهجه النقدي في التعامل مع الآثار الفنية والأدبية، وكان تركيزه على ثلاثة عوامل رئيسية؛ هي[2]:

1- الوسط الاجتماعي وتاريخه
2- شخصية الأديب وتاريخها
3- اللغة وتاريخها

تتدخل هذه العوامل في توجيه البعد النفسي للمنجزات الإبداعية، إذ يصعب على الباحث تفسيرها دون دراسة المرجعيات التاريخية التي أنتجتها، سواء تعلق الأمر بالوسط الاجتماعي، أو شخصية الأديب، أو الممارسات اللغوية السائدة.

وقد استمد المنهج النفسي آلياته النقدية من نظرية التحليل النفسي (psychanalyse)، وقد تم نقل هذا المصطلح من اللغة الأجنبية إلى العربية بواسطة النحت بين مصطلحي التحليل والنفسي فكان منهما مصطلح

[1]- ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007، ص23.

[2]- ينظر: حسن مسكين، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2010، ص52.

"التحلفسي" وهذا ما ذهب إليه الباحث "عبد الملك مرتاض" حين قال: «والتحلفسي منهج من مناهج علم النفس الكلينيكي غايته الكشف؛ بواسطة طرائق مختلفة عن هواجس النفس وعللها الباطنة، عبر إثارة الذكريات، والرغبات الجسمية والصور المتماشجة تحت أنظمة من الأفكار اللاواعية المعقدة التي يسبب وجودها الذي لا يكاد يبين اضطرابات نفسية، وربما جسمية أيضا، وكثيرا ما يحدث في ذلك تأثيرات، كلما أثاره المعالج وازدجاه نحو حال الوعي»[1].

بالإضافة إلى اعتماد المصطلح المعرّب "سيكولوجية"؛ في اتصاله بمصطلح الأدب، ويُقصد بـ "سيكولوجية الأدب" «دراسة الكاتب كنمط أو كفرد، أو دراسة عملية الخلق، أو دراسة الأنماط والقوانين السيكولوجية داخل الأعمال الأدبية، أو –أخيرا– دراسة الآثار التي يتركها الأدب لدى قرائه "سيكولوجية المستمع"»[2].

تتوزع المقاربة النفسية على أربعة مجالات بحثية؛ هي دراسة الكاتب أو المبدع بوصفه نموذجا إنسانيا قابلا للتحليل، ودراسة عملية الخلق الإبداعي في محاولة لتفسيرها وربطها بأسبابها المقنعة، ودراسة الأعمال الأدبية من حيث القوانين والشروط التي تحكمها، ودراسة الآثار السيكولوجية التي تتركها في نفس المتلقي؛ وتبعا لذلك يمكن القول بسيكولوجيات متعددة؛ تتعلق بالمبدع، والخلق الإبداعي، والعمل الأدبي، والقارئ.

وفي هذا السياق أفادت الدراسات الأدبية من تصورات علم النفس ومفاهيمه ومصطلحاته في اقتراح أربعة مجالات للبحث النقدي النفسي؛ متباينة من حيث المقاربة المنهجية، وكذلك الممارسة المصطلحية؛ إلا أنها تتفق في المرجع السيكولوجي؛ وهي تتمثل في[3]:

1- سيكولوجية الإبداع: تدرس الأعمال الإبداعية؛ متتبعة آثارها النفسية.

2- سيكولوجية المبدع: تبحث في دلالة العمل الإبداعي على نفسية صاحبه.

3- سيكولوجية التلقي: تدرس العلاقة النفسية بين العمل الإبداعي والمتلقي أو الجمهور.

4- سيكولوجية التحليل النفسي للأدب: تدرس العمل الأدبي دراسة نفسية، وهذا هو الموضوع الحقيقي للنقد النفساني.

---

[1]- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص137.

[2]- رنيه وليك وآوستن وارن، نظرية الأدب، تر. عادل سلامة، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، 1992، ص113.

[3]- ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص23-24.

وبالنظر إلى هذه السيكولوجيات نستنتج أنها تتصل بالعملية الإبداعية من كل جوانبها المنتجة؛ حيث أصبحت «الدراسات النفسية لا تقتصر على الإبداع، ولا تتوقف عند بعض مظاهر النص، وإنما تشمل أيضا عمليات التلقي والاستجابة والفهم وبناء المتخيل؛ مما يجعل الدائرة التواصلية تكتمل بهذا اللون من الدراسات النفسية»[1].

وعمليات التلقي والاستجابة والفهم، وكذلك بناء المتخيل لا تتيسر للناقد النفسي دون معرفة سياقاتها الخارجية التي لا تقف عند حدود النص بل تتجاوزه بمسافة أكبر من النص نفسه؛ حتى تتمكن من إدراك كنهه إدراكا صحيحا من الناحية السيكولوجية.

وهناك عدة مصطلحات تمت ترجمتها إلى اللغة العربية؛ وقد انتقلت إلى النقد النفسي العربي في سياق نقل مفاهيم وتصورات المنهج النفسي الغربي؛ كما ظهرت عدة مصطلحات جديدة؛ تبعا للتخصص الذي توصلت إليه الدراسات النفسية؛ مثل: "النقد النفسي" (psychocritique)، و"التحليل النفسي السيميائي" (sémanalyse)، وكذلك "التحليل النفسي النصي" (textanalyse)، و"القراءة النفسية" (psycholecture)[2]، بالإضافة إلى "النقد التحليلي النفسي" (la critique psychanalitique)[3].

وإذا كانت ترجمة المصطلح النقدي عموما لم تسلم من إشكالية التوتر والارتباك في الفهم بسبب النقل المصطلحي المفتقر للمراجعة الواعية للمرجعية الثقافية المؤسسة، فإن ترجمة المصطلح النفسي لم تسلم من إشكالية التأثير الفكري لمصطلحات علم النفس.

وقد أكد على خطورة هذه المفاهيم الباحث "محمد مندور" حين قال: «عندما نسلم بإمكان الاستفادة من علم النفس في دراسة الأدب، فإننا نحذر الحذر كله من أن ينتهي الأمر بإقحام مصطلحات علم النفس، وما يمكن أن يكون قد استنبطه ذلك العلم من قوانين عامة، على الأدب ودراسته، ومن البديهي أنه في استطاعتنا أن

[1]– صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص79.

[2]– ينظر: مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر. رضوان ظاظا، مر. المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو 1997، ص61.

[3]– ينظر: جان إيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، تر. قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق، سورية، 1993.ص191.

نفهم ونحلل العناصر النفسية الفريدة ذاتها دون استخدام للمصطلحات الضخمة، والقوانين الطنانة، وذلك لأن فهم النفس البشرية شيء، وعرض نتائج أبحاث علماء النفس أو إقحامها على الأدب شيء آخر»[1].

والمقصود بالمصطلحات الضخمة تلك التي تتصل اتصالا وثيقا بالمرض النفسي، أكثر من التعبير عن حالة نفسية منتجة للأثر الإبداعي؛ مثل: العصاب، والعقد، والانفصام، وغيرها، ومع ذلك لا ننكر القيم المعرفية التي اكتسبها النقد النفساني العربي من اتصاله بالتحليل النفسي الغربي للأدب منهجا ومصطلحا.

خلاصة:

طال النشاط الترجمي مصطلحات المنهج النفسي المتداولة في الخطاب النقدي الغربي، غير أن الناقد العربي وقبل أن يتجاوز إشكالية الاكتساب الصحيح للمعرفة النقدية السيكولوجية، والقدرة على التحكم فيها إجرائيا، سرعان ما اصطدم بإشكالية أكبر على صعيد المصطلح النقدي في اتصاله بحقول دلالية نفسية متشعبة.

[1]– محمد مندور، في الأدب والنقد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1988، ص40.